الفصل الثالث

رؤية اللورد شافتسبرى

إسرائيل أنجليكانية:

مسيحية طبقًا للكتاب المقدس

لقد كتب اللورد «بالمرستون» خطابًا لسفيره فى القسطنطينية عن اليهود، وسط محاولاته لمنع انهيار مفاجئ للإمبراطورية العثمانية. قال فى خطابه: «**يوجد فى الوقت الحالى بين اليهود المتفرقين فى أنحاء أوروبا شعور قوى أن الوقت يقترب بالنسبة لأمتهم كى تعود إلى فلسطين... وسيكون مهمًا للغاية بالنسبة للسلطان أن يشجع اليهود للعودة والاستقرار فى فلسطين؛ لأن الثروة التى سيعودون بها إلى فلسطين سوف تزيد من الموارد الموجودة فى البلاد التى يحكمها السلطان، ومن ناحية أخرى، فإن اليهود إذا عادوا تحت تصديق ودعوة وحماية السلطان، سوف يكونون بمثابة اختبار لأى نوايا سيئة مستقبلية من ناحية «محمد على» أو خليفته..... وعلىّ أن أنصح سيادتكم بشدة أن تشيروا على الحكومة التركية بتقديم كل التشجيع ليهود أوروبا بالعودة إلى فلسطين**».

وكما رأى وزير الخارجية، فإن اليهود، حيث إنهم سيمنحون مساحات من أراضى وطنهم القديم، سيكونون بمثابة الدعامة وسط البناء الواهى الآخذ فى الانهيار، وهو الإمبراطورية التركية. وسوف يقوم اليهود بمجهود كبير من أجل البقاء على هذا البناء قائمًا، وهذه كانت سياسة بريطانيا فى هذا الشأن.

ولقد كان خطاب «بالمرستون» بتاريخ ١١ أغسطس سنة ١٨٤٠م. وفى ١٧ أغسطس نشرت «التايمز» خطة رائدة «لزرع اليهود فى أرض آبائهم»،

وأن هذه الخطة، كما تقول الجريدة، تمر الآن بفحص سياسى جاد. لقد أشادت الجريدة بأن مجهودات اللورد «آشلى» صاحب الخطة (الذى أصبح فيما بعد لورد «شافتسبرى») مجهودات عملية وحكيمة. وقد نشرت الجريدة إحصائية كان يقوم بها «آشلى» عن رأى اليهود؛ لكى يعرف شعورهم نحو موضوع العودة إلى الأرض المقدسة، ومتى سيكونون مستعدين للعودة، وما إذا كان اليهود «ذوو المال والجاه» سوف يشاركون فى العودة ويستثمرون رأس المال الذى لديهم، لو تم إقناع الباب العالى أن يعد اليهود بتوفير القانون والعدالة والأمن لهم ولأراضيهم، وأن حقوق اليهود وامتيازاتهم «سوف يتم تأمينها تحت حماية القوة الأوروبية».

لم يكن هناك شك حول مَن القوة الأوروبية التى تقصدها «التايمز». لقد خلق هذا المقال نوعًا من الإثارة. لقد سجل اللورد «آشلى» فى مذكراته بعد ١٢ يومًا من هذا المقال قائلاً: «إن الجريدة تنشر سيلاً من الوثائق عن اليهود... يالهول المؤامرات والنزاعات التى تلوح فى الأفق!... ياله من عنف، ويالها من كراهية ويالها من تركيبة شعورية ويالها من مناقشات! يا لكل عاطفة وكل شعور يوجد فى قلوب الرجال!».

من الواضح أن كلاً من «پالمرستون» وجريدة «التايمز» لم يصل إلى نفس الفكرة فى خلال أسبوع واحد عن طريق الصدفة المحضة، بل إن

كلاً منهما تم قيادته إلى هذه الفكرة ودفعه إليها وإقناعه بها وتحمسه لها. **وكان ذلك عن طريق «أنتونى آشلى كوبر» إيرل «شافتسبرى» السابع، والذى أصبح أكثر الشخصيات غير السياسية نفوذًا فى العصر الڤيكتورى (عصر الملكة ڤيكتوريا) بعد «داروين»**.

لقد كانت دوافعه دينية، وليست إمبريالية مثل دوافع وزير الخارجية. **لقد كان «شافتسبرى» يمثل الكتاب المقدس، و«پالمرستون»، إذا جاز لنا القول، يمثل السيف.** لقد كان الزمان هو سنة ١٨٤٠م، والمكان هو سوريا، الأرض المقدسة فى عصر سابق، والمركز الجغرافى للمداخل المتنافسة للإمبراطورية. **ومن هنا تصور «شافتسبرى» إمكانية وجود إسرائيل أنجليكانية (طبقًا للكتاب المقدس) يتم استعادتها بواسطة انجلترا البروتستانتية، ومن ثم يمكن تفنيد الباباوية وتحقيق النبوءة وخلاص البشرية فى وقت واحد.** وبالطبع سوف يكون «پالمرستون» سعيدًا إذا أمكن إرباك الفرنسيين وإنقاذ الترك فى نفس الوقت.

لقد قيل عن اللورد «شافتسبرى»: إن وجهه كان الأكثر نقاءً وشحوبًا وجلالاً فى «ويستمينستر»، فإن وجهه الكلاسيكى البارد كان دائمًا ما يوحى بمقارنة بينه وبين تمثال وجهه من الرخام. وكما قال أحد معارفه، فإن كل خصلة سوداء فى شعره كانت تبدو أنها تجعدت من فرط إحساسه بالواجب. ومع ذلك فإن ذلك الرجل المثالى ذا المقام الرفيع كان فى الحقيقة رجلاً رءوفًا عطوفًا شديد التدين، وقد أسس

حيـاته على الاتباع الحرفى للكتـاب المقدس. **وكان يقـول عن الكتاب المقدس: «إنه كلام الله المكتوب من أول حرف فـيه إلى آخر حرف ومن آخر حـرف إلى أول حرف... ولا شيء غـير النص المقـدس يمكنه تفـسيـر نص مقدس آخر. لقد كنت سأرفـضه لو أنه جاء لى من عند إنسان. ولكنى أقبله وأؤمن به وأباركه حـيث إنه نص مقدس... ومثل بنى إسـرائيل فإننى أحنى الرأس وأتعـبد»**. وهذا ما جـعل «شافـتسبـرى» رجلاً محـبًا للخـير. فالكتاب المقدس هو الذى جعله كذلك، لقـد كان اللورد «شافتسبرى» من أبناء الطبقة الأرستقراطية الحـاكمة، وقريبًا بالمصاهرة لرئيسى وزراء (الويج) العظيمـين فى عصره، وكـان الحزبان يسعـيان وراءه من أجل قـبول منصب وزارى، ولكـنه كان دائمًـا ما يـرفض من أجل التفـرغ لأعماله الخيرية، وهذا ما جعل «شافتـسبرى» تجسيدًا لاستخدام النفوذ فى أعمال الخير. لقد كان يؤمن حـقًا أنه حامٍ لإخوته المواطنين خاصة المعدمين منهم. لقد كان يؤمن حقًا أن منحه هذه الرتبة والقدرة والنفوذ يلزمه مسـاعدة الفقراء المعدمين. لقـد كان يؤمن حقًا أن أعمـال الخير والحب التى تعظ بها الأناجيل هى خلاصة ما يحتاج الإنسان أن يعرفه أو يمارسـه، وكـان هو شـخصـيًـا يمارس هذه التـعـاليم. لقـد كـان «شافتسـبرى» هو الذى أدخل «مشروع قانون العشـر ساعات» (لائحة العمـل بالمصانع والتى تمنع العـمل لأكثـر من عشـر ساعـات) خلال البـرلمان، والذى يرجع له الفـضل فى إخـمـاد الثـورة العمـاليـة فى المقاطعات الصناعية. كمـا أدخل أيضًا لائحة المناجم ولائحة الأمراض

العقلية ولائحة مساكن الإيجار، التى أسماها «ديكنز» أفضل تشريعات تم تنفيذها فى انجلترا حتى ذلك الحين.

وقد يتساءل القارئ: ما علاقة كل هذا بفلسطين؟ الفكرة تكمن فى أن حماس «شافتسبرى» لليهود، الذين كان ينظر إليهم على أنهم «شعب الله القديم»، كان ينبع من اتباعه الكتاب المقدس الذى جعله ذلك الإنسان المحب للخير.

لقد كان يعمل على إعادة اليهود لفلسطين بنفس الجدية التى كان يعمل بها لإدخال «قانون العشر ساعات»، رغم أن معظم الناس الذين سمعوا عن اللورد «شافتسبرى» لا يعرفون ذلك، ولكن برغم كل ذلك الحماس فى صالح اليهود، فهناك شك ما إذا كان اللورد «شافتسبرى» كان يفكر فيهم كأناس لهم لغتهم الخاصة وتقاليدهم الخاصة وتوراتهم الخاصة وشريعتهم الخاصة وقوادهم الروحانيين الذين ظلوا يوقرونهم عبر مئات الأجيال. **بالنسبة له ولكل أعضاء مدرسة «إسرائيل من أجل تحقيق البشارة» فإن اليهود هم ببساطة الأداة التى من خلالها يمكن أن تتحقق بشارة الكتاب المقدس. اليهود بالنسبة لهم ليسوا شعبًا، ولكن خطأ جماعيًا فى حق المسيح، ويجب أن يتم إقناعهم بالإيمان به حتى يمكن للعجلة التى سوف تؤدى إلى الرجوع الثانى للمسيح وخلاص البشرية أن تدور.**

وكما يقول اللورد «شافتسبرى» لكاتب مذكراته الذى اختاره وهو «إدوين هودير - Edwin Hodder» **فإن الإيمان بعودة المسيح «كان دائمًا مبدأ محركًا فى حياتى، فأنا أرى كل شىء يحدث فى العالم يمهد لهذا**

الحدث العظيم». وقد كتب هو شخصيّا: «لماذا لا نصلى من أجل ذلك فى كل وقت نسمع فيه دقة الساعة؟». وحيث إن عودة اليهود لفلسطين جزء لا يتجزأ من هذا الحدث العظيم كما يقول الكتاب المقدس، فإن «شافتسبرى» كما يقول «هودير»: لم يساوره الشك أبدًا فى أن اليهود سوف يعودون إلى وطنهم... وكان ذلك دعاءه اليومى وأمله اليومى. «صلوا من أجل سلام القدس!» كانت هى الكلمات المحفورة على الخاتم الذى كان يرتديه «شافتسبرى» فى يمينه.

ومثل كل الرجال الذين يتملكهم إيمان قوى وراسخ، فإن «شافتسبرى» شعر بلمسة الرب على كتفه تحثه على العمل شخصيّا من أجل ذلك «الحدث العظيم». وكان «شافتسبرى» فى رفقة عظماء العصر الفيكتورى لا يشك أبدًا فى إمكانية استخدام البشر كأداة لتحقيق أهداف إلهية. هذا المبدأ لم يكن مقبولاً لدى اليهود. وظل كذلك حتى أوائل سنة ١٨٦٠م. فى السابق كان المسيحيون يستعجلون بشدة عودة مسيحهم، إما لأنهم كان يشعرون أكثر بالحاجة إلى الخلاص، وإما لأن روح التسليم بالقدر بعد طردهم من الأرض المقدسة فى الحروب الصليبية لم تكن قد أصابتهم بعد. لقد شعروا بأهمية الحدث مرة أخرى فى انجلترا أثناء «الصحوة الإيفانجليكية»، فقد عادت حركة البندول إلى الناحية الأخرى من بعد الهيلينية التى اتسم بها القرن الثامن عشر، إلى النزعة العبرية الجادة مرة أخرى.

مع حتمية العودة إلى العبرانية، فإننا نجد «شافتسبرى» يستخدم نفس عبارات جماعات أصحاب الحناطير (الكارتات) والپيوريتانز المتشددة فى التعبير عن تأييده لاستعادة إسرائيل. لم يكن ذلك لأن العبرانية بمقياس «ماثيو أرنولد» لها أى علاقة باليهود الحاليين، ولكن لأن هذه المبادئ والمعتقدات موروثة من العهد القديم. **وكلما عاد المسيحيون إلى العهد القديم، وجدوا أنه يبشر بعودة شعبه (اليهود) إلى أورشليم، وشعروا أن عليهم واجب المساعدة فى تحقيق هذه البشارة.**

لقد كانت انجلترا فى زمن «شافتسبرى» على علم بالكتاب المقدس، كما كانت فى زمن «كروميل»، إن المناخ الدينى قد تهيأ تقريبًا بشكل كبير منذ تلك الأيام العارضة التى تولى فيها «پيت» عقد اجتماعات الوزارة أيام الآحاد.

خلال القرن الثامن عشر، توهجت النزعة الدينية القديمة للپيوريتانز فقط عند جماعة الـ «Nonconformists». لقد عادت هذه النزعة الدينية إلى المسيحية بعد صدمة الثورة الفرنسية «الملحدة» لتدفئ القلوب المسيحية الباردة وتملأها بالورع. وبدأت هذه الصحوة التبشيرية تؤثر بشكل كبير فى الطبقة العليا التى أصبحت تهئ نفسها معنويًا وسياسيًا - بحرص شديد - بسبب الخوف مما كان يحدث فى فرنسا. ومن أجل تجنب الابن الفظيع للمدرسة العقلانية، الثورة، فقد كانت هذه الطبقة مستعدة للانضمام اللافكرى إلى المذهب الإيڤانجليكانى حتى لو تطلب

الأمـر الإيمان والأعمـال الصالحـة والارتيـاب فى كل ما هو ملحـد. وأصبح الذهاب إلى الكنيسـة والوعظ والإيمان المطلق بالكتاب المقدس من مظاهر الذوق الرفيع مرة أخـرى، لقد اقتطف تريفيليان نصّا من أرشيف السجل السنوى فى انجلتـرا لسنة ١٧٩٨م يقول: «لقد أصابت الدهشة أفراد الطبقة الدنيا فى جميع أنحاء انجلترا حينما رأوا الساحات المؤدية إلى الكنائس مليـئة بالعـربات، وهذا المظهر الجديـد جعل أهل الريف البسطاء يتساءلون عما يحدث». كل ما فى الأمر أنه قد ظهرت «روح البيـوريتانز مـرة جديدة - Neo - Puritanism»، وأصبح على انجلتـرا أن تحـقن نفـسـهـا بجـرعـة من الورع مـرة أخـرى. وكـان الإيڤانجليكيـون مثل البـيوريتـانز محلاً للسـخرية بسبـب هذه النزعة الدينية، والشعور بأن لديهم مهمة دينية معينة، والوعظ المستمر والتعبد أيام الآحاد والـتحدث بالكـتاب المقدس. وهـناك أمزوحة قـيلت عن صراع «البيـوريتانز -Puritans» مع الأسرة الحـاكمـة: إن أحد طرفى الصراع مـخطئ ولكنه رومانسى، والطرف الآخـر على صواب ولكنه مثير للاشمئزاز.

وعلينا أن ننظر إلى الإيڤانجليكيين من نفس المنظار. لقـد لاصق المزيد من السخرية سمعة اللورد «شافـتسبرى»؛ حيث إنه كان النموذج الأصلى للإيڤانجليكيين والزعيم المعترف به لحزبهم. **ومما يؤلم المؤرخين الاقـتـصاديين والماركـسيين و«الفـابيين - Fabians» أنهم يعـترفـون أن «مشـروع قانون الـعشر سـاعات» الذى يعـتبـر التشـريع الأساسى للائـحة**

العمال فى القرن التاسع عشر، جاء من أحد نبلاء الطبقة العليا نتيجة مشاعره الخاصة تجاه الإنجيل. ومما يؤلمهم أيضًا أنهم يعترفون بأن إلغاء تجارة الرقيق لم يتحقق بسبب قانون المكسب والخسارة التجارى، وإنما تحقق نتيجة للنزعة الإنسانية الجديدة لدى الإيڤانجليكيين. ولكن إذا أخذنا مثلاً لأحد المؤرخين الذين لا يتعلقون بأحبال الاقتصاد مثل «هاليڤى» نجد أنه يقول: إنه من المستحيل المغالاة فى تقدير تأثير الإيڤانجليكيين فى عصرهم. لنفرض أنهم لم يكونوا مفكرين أو راجحى الفكر أو يمتازون باللياقة أو الأناقة، ولنفرض أنهم بما فيهم اللورد «شافتسبرى» كانوا إلى حد ما سخفاء، لكنهم كانوا هم الأساس فى أوائل العصر الڤيكتورى، وقد استمر أثرهم طويلاً بعد أن ولت أيامهم. حتى أعداء الدين فى القرن التاسع عشر كانوا متدينين. وزلزلت المعركة الطويلة بين الإيمان والعلم، أو بين المدافعين عن الكتاب المقدس كوحى وبين الذين يكشفونه كتاريخ، العصر الڤيكتورى، وفرقت بين العائلات والأصدقاء كما لو كانت حربًا أهلية. ولكن كلا الجانبين كان لديه نفس الشعور بجدية ونبل الهدف الذى توارثوه من البيوريتانز. لم تكن هناك أى مبادئ منحلة أو متحررة لدى أى من الفريقين.

لقد أصبح فى أيامنا هذه تقريبًا من المستحيل أن نقدر بإنصاف دور الدين فى التاريخ السياسى والاجتماعى والاقتصادى فى الماضى. نحن لا نستطيع أن نحكم على دور الدين لأننا نفتقده. إن الدين ليس جزءاً من

حياتنا على الأقل بالمقارنة بدور الدين فى الحياة قبيل القرن العشرين. ولكن القرن العشرين هو وليد القرن التاسع عشر، وإذا كانت انجلترا فى القرن العشرين تتولى إعادة إسرائيل إلى فلسطين؛ فذلك لأن المحرك الرئيسى للقرن التاسع عشر فى مجمله هو الدين. لقد اختار «تريفيليان» هذه الشخصيات الأربع، «شافتسبرى»، و«جلادستون - Gladstone»، و«الجنرال جوردن - General Gorden»، والدكتور «ليفينج ستون - Living Stone» كأبرز أربع شخصيات فى ذلك العصر؛ لأن كلاً منهم اعتبر الحياة تجربة دينية، أما «ستارتشى - Strachey» سواء اعترف بذلك أم لا «فإن الشخصيات الأربع الفيكتورية البارزة التى اختارها هم: «الكاردينال مانينج - Cardinal Manning» ، و«فلورنس ناتينجيل - Florence Nightingle»، والدكتور «أرنولد - Dr.Armald»، والجنرال «جوردن» لنفس السبب. كل من «جلادستون» و«مانينج» لهما بدايات إيفانجليكية، ورغم أن أحدهما انتهى به الأمر إلى الكنيسة العليا والآخر إلى الكنيسة الرومانية، فإن كليهما اعترف بفضل «شافتسبرى». وفى الحقيقة لقد أسماه «مانينج» الشخصية الممثلة للعصر.

كان اللورد شافتسبرى يصرح قائلاً: «أنا إيفانجليكى الإيفانجليكيين». لقد كانت حركة تبشيرية. لقد عقدوا العزم على أن يحولوا كل مَن هو ليس مسيحيًا إلى المسيحية حتى يشاركهم الخلاص، خاصة اليهود.

فاليهود بالنسبة لهم هم العامل الذى توقف عليه كل شىء، بدونهم لن يتحقق الرجوع الثانى للمسيح. فاليهود هم العامل الأوسط فى القياس المنطقى الذى لا يمكن فصله بالنسبة للإيڤانجليكيين.

فنبوءة الكتاب المقدس = عودة إسرائيل وتحولها للمسيحية = القدوم الثانى للمسيح. وبالطبع كان على الإيڤانجليكيين تنحية خطر أصحاب المذهب العقلى الذى إذا سمح لهم بتفنيد هذا القياس لضاع كل شىء؛ حيث إن أصحاب المذهب العقلى كانوا ينفون العلاقة بين العهد الجديد والقديم من حيث بشارة عودة المسيح، ويتركون بينهما العلاقة التاريخية فقط. وهذا ما كان يدركه اللورد شافتسبرى تمامًا. كان دائمًا ما يدعو قائلاً: «رب أعطنى القدرة والسمو» لكى يجتث «القدوم البغيض للمذهب العقلى القذر من جذوره». وبعد قرابة ثلاثين عامًا لم يزل شافتسبرى فى غير حاجة لذلك العلم الحديث الذى كانوا يحاولون أن يضعوه فى مقابل بالرب.

وكان يكره على وجه الخصوص هؤلاء المدافعين عن الكتاب المقدس، والذين كانوا يحاولون التوفيق بينه وبين العلم. وفى مدخل إحدى المذكرات التى كتبت سنة ١٨٧١م نجد هذه الكلمات: «**كلام الوحى الإلهى يخاطب القلب وليس العقل. إن الله يهتم قليلاً نوعًا ما بعقل الإنسان، وإنما يعنى كثيرًا بقلبه، وإن مجرد ريالين من الإيمان والحب أهم كثيرًا بالنسبة له من خزانة كاملة من الفكر والمعرفة. إن الشيطان يحكم فى عقل الإنسان والرب يحكم فى قلبه**».

إن هذه السطور الرائعة تعبر عن لب الفلسفة الدينية المسيطرة فى النصف الأول من العهد الفيكتورى. وهذا ما يفسر كيف أن الأمر كان ممكنًا بالنسبة للإيڤانجليكيين أن يبذلوا الطاقة الهائلة والعزيمة القوية فى وهم تحويل اليهود إلى المسيحية. ولو كان هناك مزيد من العقلانية وقليل من الروحانية لعرفوا أن نجاح هذا المشروع مشكوك فيه، ولكن كما قال شافتسبرى فيما بعد: إن قبول الشك معناه السماح بإدخال قدم الشيطان من الباب. ولذلك لم يكن لدى الإيڤانجليكيين الشك. بل بالعكس، فإن «تشارلز سايمون» الزعيم الإكليركى للحزب يعتبر عملية تنصير اليهود كما نقل عنه كاتب مذكراته: «ربما تكون أخلص اهتمامًا فى حياته».

وبين كل الجمعيات الإنجيلية التى توالدت مع نهاية ذلك القرن وبداية القرن التالى، تعتبر «جمعية لندن لنشر المسيحية بين اليهود» أبرز هذه الجمعيات لسنوات عديدة. وكانت قائمة رعاة هذه الجمعية من النبلاء تلمع كالذهب لقد وضع الحجر الأساسى لمصلى الجمعية ومدرستها عام ١٨١٣م دوق «كنت»، أخو الملك ووالد الملكة «ڤيكتوريا». وكان يعتبرها «باسيل وود» المربى الإيڤانجليكى العظيم «مؤسسته المفضلة» بين أسراب الجمعيات التى تسعى وراء عضويته. لقد أصبحت مكانة هذه الجمعية تهدد مكانة «جمعية الكنيسة التبشيرية» التى صار وعّاظها يقولون بغضب: «هل هو إله اليهود فقط؟».

لقد أصبحت «جمعية اليهود»، حيث إن هذا هو الاسم الذى اشتُهرت به، هى المنبر الرئيسى الذى من خلاله صار اللورد «شافتسبرى» ورفاقه المحتمسون يتابعون حلمهم الجميل، وهو إنشاء أبرشية أنجليكانية فى القدس، وقيام إسرائيل أنجليكانية على أرض فلسطين.

ظهرت هذه الجمعية عام ١٨٠٨م وسط الارتفاع المفاجئ للحماس الإيڤانجليكى الذى نتج عنه إنشاء جمعيات مثل «الجمعية البريطانية والأجنبية للكتاب المقدس»، و«جمعية الأرض الدينية» و«جمعية الكنيسة التبشيرية» وجمعيات أخرى كثيرة.

ولكن ظلت «جمعية اليهود» تسير قدمًا نحو هدفها المعلن بسلسلة من «الخطب القائمة على البرهان» مساء يومى الأربعاء والأحد، والتى تهدف لإثبات أن «يسوع» هو مسيح اليهود ومخلصهم. لقد تم استئجار كنيسة من الفرنسيين البروتستانت وتم إعادة تسميتها كـ«مصلى اليهود». وتم إنشاء مدرسة، على أمل أن تنجذب إليها العائلات اليهودية وترسل إليها أولادها نتيجة العرض المقدم للتعليم المجانى. وفى خلال ثلاث سنوات استطاعت المدرسة أن تفخر أنها بحوزتها أربعمائة تلميذ، ولن يلحظ غير الفضولى أن أقل من خمس هؤلاء التلاميذ من اليهود.

وبعد مرور خمس سنوات على إنشاء الجمعية، أصبحت تحتوى على قائمة تضم حوالى ألفين من المتبرعين، والذين تملأ أسماؤهم

خمسين صفحة من الحجم الصغير، وتتراوح تبرعاتهم بين بضعة شلنات إلى مائة جنيه. وقد حصلت على قطعة أرض خاصة بها وتم إعادة تسميتها «مكان فلسطين»، حيث تم تشييد مصلى صغير ومدارس والجامعة العبرية للمبشرين. وقد نشرت الجمعية جريدتها الشهرية «العقل اليهودى». وبحلول عام ١٨٢٢م كان قد ذاع صيت الجمعية حتى أصبحت اجتماعاتها تقام فى «مانسيون هاوس - Mansion House» يرأسها اللورد «مايور- Lord Mayor». وبمجىء عام ١٨٤١م انضم رؤساء أساقفة كل من «كانتربرى» و«يورك» وثلاثة وعشرون مطرانًا أو «تقريبًا كل منصة الأساقفة» إلى قائمة حضور الجمعية، كما انضم أيضًا إلى القائمة دوق ونبلاء الأرستقراطية البريطانية. وبحلول عام ١٨٥٠م كان قد أصبح للجمعية ثمانية وسبعون مبشرًا يعملون فى اثنين وثلاثين مكتبًا فرعيًا من لندن إلى القدس، بنفقات تبلغ ستة وعشرين ألف جنيه.

وفى التقارير السنوية للجمعية، التى أخذنا منها هذه الحقائق المفعمة بالفخر والسعادة، فإن البيان المتواضع الوحيد هو عدد اليهود الذين اعتنقوا المسيحية، وأحيانًا كانت تحذف هذه الإحصائيات تمامًا من الخجل. فى عام ١٨٣٩م وبعد ثلاثين عامًا من العمل، فقد استطاعت الجمعية أن تحصل على عدد مائتين وسبعة بالغين يهود اعتنقوا المسيحية فى لندن، أو متوسط ستة أو سبعة أشخاص سنويًا. أما بالنسبة للعمليات التبشرية الخارجية، فقد أقرت الجمعية - على سبيل المثال - أن فى «بغداد» والتى بها

١٠٠٠٠ يهودى وثلاثة مبشرين، تم تنصير يهوديين، ومن «سميرنا» والتى بها ١٥٠٠ يهودى لم يتم تنصير أحد وتم إلغاء الإرسالية التبشيرية هناك، لقد حققت الجمعية نجاحًا بلا شك، ولكن ليس بالقدر المطلوب. على أى حال فإن ذلك لم يمثل مشكلة. فإن رعاة الجمعية الخيريين ظلوا ينشرون المسيحية بين اليهود بناءً على **قول «بولس الرسول»: بدون اليهود ستظل الكنيسة غير كاملة إلى الأبد.** ولكنهم كانوا لا يدركون أن ذلك المشروع لا يحظى إلا بقدر ضئيل من الاهتمام لدى اليهود. وإنه لمدهش حقًا ذلك التفاؤل الذى تمتع به العاملون بالجمعية تجاه المهمة التى فشل فى إنجازها أعظم المبشرين فشلاً ذريعًا. لقد كانوا دائمًا يرددون «رسالة بولس للعبرانيين» لتبرير عملهم ولكن لا يبدو أبدا أنهم تساءلوا: لماذا قد حرم أهل «بولس» (اليهود) عليه النجاح الذى حققه فيما بعد بين الجنتيل(*)؟ أو يسألون أنفسهم: لماذا يجب على اليهود بعد ١٨٠٠ عام أن يجدوا آراء الجمعية أكثر إقناعًا من آراء «بولس» التى أنكروها؟ ولكن إخلاصهم وهدفهم الجاد كانا فى غاية الوضوح. إن الكاهن «أليكسندر ماكاول- Alexander Maccaul» الرئيس التنفيذى للعمل التبشيرى بالجمعية وأستاذ العبرية بجامعة «الملك» بلندن، لم يكن فقط أعظم عالم فى العبرية فى عصره بانجلترا، ولكنه كان رجلاً عاش وعمل بين يهود روسيا وبولندا، وكان على علم بأصول الديانة اليهودية، وكانت هذه من مميزاته الرفيعة. أما

(*) الجنتيل: غير اليهود.

«لويس واى - Lewis Way» وهو محام ثرى كرّس ثروته لجمعية اليهود، وكان له الفضل فى «أول دفعة كبيرة فى سبيل القضية اليهودية»، فقد كان يتأجج بداخله نفس الإيمان بأن إفادة العالم أجمع ستتحقق بالنجاح المطلق لعمله. لقد أتى «واى» إلى الجمعية بطريقة تطابق نزعة الإيڤانجليكيين المجيدة المعادية للعقلانية. وطبقًا للأسطورة التى تُروى كل اجتماع سنوى، رغم أنه تم التشكيك فيها، فإن «واى» كان معجبًا بقطعة أرض من البلوط رآها أثناء التريض بحصانه يومًا من «إكسماوث» إلى «إكستر»، وقد أخبره صديق له أن قطعة الأرض هذه تملكها سيدة تدعى «چين پارمينتر - Jane Parmenter»، وأنها قد أمرت فى وصيتها بألا تقطع أشجار البلوط هذه حتى يتم إعادة اليهود إلى فلسطين. وقد عاد السيد «واى» إلى بيته متأثرًا بهذا الاعتقاد الطريف ليعيد قراءة الكتاب المقدس حتى وصل إلى البشارة التى جعلته يترك القانون ويدرس اللاهوت ويلتزم بأوامرها ويتبرع بثلاثة عشر ألف جنيه ليخرج جمعية اليهود من ديونها. وبعد ذلك ظل «واى» الممول المالى الرئيسى للجمعية لمدة عشرين عامًا. وقد موّل عملية طبع الكتاب المقدس باليدشية [العبرية فى ألمانيا]، ونشر الطقوس الدينية لكنيسة انجلترا باللغة العبرية، وقد زار كلاً من قيصر روسيا وملك بروسيا ليكسب تأييدهما الرسمى، لإقناعهما أن «تنصّر اليهود على أيديهما يمثل الفائدة الكبرى للشعب اليهودى وللعالم أجمع». ومما أثار اشمئزاز رؤساء كليات «دوبلن» الذين علقوا آمالاً كبيرة على ذلك

الدارس العبقرى الشاب «ماكاول»، أنه ترك الجامعة وذهب إلى «وارسو» كمبشر مسيحى لليهود. وأثناء رحلته للخارج كما تقول ابنته فى مذكراتها، فإنه قرأ «رسالة بولس للعبرانيين» ثلاث عشرة مرة، وقد عقد العزم على أن يكون بارعًا فى النص العبرى حتى إنه استطاع أن يكتب أسفار موسى الخمسة بخط اليد ثمانى مرات خلال ساعات الفراغ المتراكمة فى حياته. ولا عجب فى أن ابنته التى ولدت فى وارسو قد تعلمت العبرية فى سن الثالثة، وفى الرابعة استطاعت أن تقرأ الكتاب المقدس وتتحدث الألمانية وتجيد اليدشية، وفى سن الثانية عشرة قامت بتدريس العبرية فى المدرسة التبشيرية بمدرسة «مكان فلسطين».

وعندما عاد «ماكاول» إلى لندن سنة ١٨٣١م تم تعيينه رئيسًا لكلية جمعية المبشرين، ولعب دورًا بارزًا فى توضيح أحوال الشعب اليهودى للمواطنين الإنجليز، الذين - كما تقول ابنته - «يعرفون القليل عنها ويكترثون أقل». وفى ظل جهوده لإقناع المترددين اليهود بمهمته، فقد ألّف كتيبًا دعائيًا بعنوان: «السبل القديمة» يشرح فيه نظرية أن المسيحية هى النتاج المنطقى لعقيدة موسى، فى حين أن الكتابات الحبرية فى العصور الوسطى حادت عن الطريق الصحيح. وتتذكر ابنته السيدة «فين - Finn» تلك المناقشات التى كانت تقام فى مكتبة والدها ظهيرة كل سبت، عندما كان يحضر سادة من اليهود ليناقشوا الأمور الدينية، وكانت هى وأخوها الأصغر يستمعان لتلك المناقشات من فتحة الباب.

وهذه الشابة اتخـذت لها بيتًا فى الـقدس فيمـا بعد لمدة ثمانية عـشر عامًا، كزوجة للقنصل البريطانى هناك، وكانت تعمل مع زوجها على إعادة فتح الأرض المقدسة «**لأصحابها الحقيـقيين وهو الشعب العبرى**»، وأن تكون حلقة الوصل الحية بين «شافتـسبرى» و«بلفور». لقد قامت فى سن الخامسة عشرة بكتابة نسخـة من خطـاب شافتسبرى التاريخى لـ «بالمرستون»، والذى يطلب فيه أن تكون انجلترا الراعى لعملية عودة اليهود. لقـد نسخت هذا الخطاب على «ورقة فولـسكاب صفراء ذات حواشٍ ذهبية لامعة» وقدمـتها كهدية لوالدها، وقد مات سنة ١٩٢١م فى سن السـادسة والتـسعين بعـد أن عاش ليرى انجـلترا قد وضـعت فلسطين تحت الانتداب.

من المستحيل ألا يعجب المرء بمعرفة وإخلاص وحب هؤلاء الرجال أمثال ماكاول وشافتسبرى، فبعد أن أصبح الأخير رئيسًا لجمعية اليهود سنة ١٨٤٨م، ظل يحضـر كل اجتمـاع سنوى لها لمدة سبـعة وثلاثين عامًـا حتى مـات، وكان أيضًـا يتلقى دروسًا فى العـبرية من صـديقه «الحاخام ماكاول». **ولكن يظل لدى المرء الشعور بالتفاوت الهائل بين هذا السعى الجـاد وتلك النتائج الضئـيلة. فقد كـان هذا البناء الهائل قـائمًا على الرمـال من حيث نشـر المسيـحيـة بين اليهـود، وتم تكريسه لهـدف لا يزيد واقعية عن السراب فى الصحراء.**

وقد كان هـناك نقاد للجمعـية أعلنوا عن شكوكهم فى نجاحـها من

البداية، وحتى فى تقرير الجمعية السنوى لعام ١٨١٠م اعترفت الجمعية أنها يتم السخرية منها بسبب «توقعاتها الخيالية اليوتوبية الحمقاء»، ولكونها مجالاً لذلك «الحماس». وفى الواقع فقد تم اعتبار العضوية فى هذه الجمعية دليلاً على الجنون تم استخدامه فى إحدى قضايا الجرائم سنة ١٨٦٣م. يقول المدعى: «هل تعلم يا سيدى اللورد أنها عضوة فى جمعية تنصير اليهود؟» ويجىء الرد: «وهل تعلم أننى رئيس هذه الجمعية؟» فلم يكن الرئيس أحدًا غير شافتسبرى نفسه.

مثل هؤلاء النقاد كانوا يعتبرون أن مسألة تحويل اليهود إلى المسيحية لن تكون إلا بمعجزة، مثل ذلك التدخل الإلهى الذى أنقذهم من فرعون، وأن الجهود البشرية لاستعجال ذلك تعتبر عملاً وقحًا (ويُذكر أن اليهود الأرثوذكس كانوا يستخدمون نفس الاعتراض). وكان النقاد يرددون متذمرين أن مثل هذا الوقت والمال الكثير كان من الأفضل إنفاقهما فى خدمة الكنيسة المسيحية بدلاً من الجرى وراء اليهود. وكان أكثرهم غضبًا هو الكاهن «هنرى هاندلى نورس - Henry Handley Norris» والذى أصدر كتابا كاملاً سنة ١٨٢٥م يلعن فيه الجمعية وكل أعمالها فى ستمائة وتسعين صفحة من الطعن الغاضب. وهذا الرجل الذى كان يُعرف «بصانع الأساقفة» تصادف أن كان قسًا لدى والد شافتسبرى الذى كان الإيرل السادس، والذى كان على خلاف مع ابنه شافتسبرى وكان عجوزًا قاسيًا مستبدًا، وربما كان ذلك السبب فى حنين ابنه لاتباع الجانب المضاد لآرائه.

وردًا على هذه الانتقادات، فإن المدافعين عن الجمعية ظلوا باستمرار يشجعون على إصلاح الخطأ الذى تم ارتكابه طويلاً فى حق «شعب الله القديم». وكان يقنعون أنفسهم أن تحويل اليهود إلى المسيحية يمثل إلى حد ما تعويضًا لليهود عن الاضطهاد المسيحى لهم. ويناقش الكاهن «و. ت. جيدنى - W.T. Gidney» مؤرخ الجمعية بعد مائة عام، كل العلاقات التاريخية ليوسف الرامى، أو لواحد أو أكثر من الحواريين الذين وعظوا بالإنجيل فى انجلترا، ويصر على أنه ما دامت الرسالة الأصلية للخلاص جاءت عن طريق «يهودى مسيحى»، فإن على بريطانيا إعادة المسيحية إلى يهودى اليوم ردًا للجميل، إذا لم يكن هناك سبب آخر.

لقد كان للجمعية فى الواقع مهمة مزدوجة، كان عليها إقناع اليهود بالكف عن «الأخطاء والسخافات الناتجة عن آرائهم الحالية الخاطئة»، وكان عليها أيضًا إقناع المسيحيين المتشككين أن اليهود برغم الاعتراف بأنهم أناس متكبرون، متصلبو الرأى ومظلمو القلب، وغارقون فى الانحطاط الأخلاقى والعناد والجهل بالإنجيل، إلا أنهم ليسوا فقط يستحقون الخلاص، بل إنهم أيضًا عنصر حيوى فى تحقيق أمل المسيحيين بالخلاص. وقد حققوا ذلك بنوع من الإقلاب مكن العقل التبشيرى أن يتجاوز المنطق. لقد قال «بولس»: بالنسبة للإنجيل فهم أعداء من أجلكم، ولكن فيما يتعلق بالانتخاب (الاختيار) فهم أحياء

من أجل الأب. والحقيقة القديمة والتى قد تم نسيانها وهى أن رسالة يسوع والموجهة إلى «أقربائه بالشحم واللحم» اليهود أصلاً، قد أصبحت النص الأساسى لدى الوعّاظ الإيڤانجليكيين. **وقد روع «تشارلز سايمون -Charles Simeon» مستمعيه فى خطبة ألقاها سنة ١٨١٨م يذكرهم فيها بأن «الذى يشفع لنا الآن فى هذه اللحظة، وهو عند اليد اليمنى للرب، يهودى». ومن أجله يجب أن يعتبروا اليهود «أكثر شعب فى العالم أهمية، وأعظم المحسنين فى الجنس البشرى». وبالمثل فإن «هور - Houre» قد هنأ أعضاء الجمعية فى الاحتفال اليوبيلى لسنة ١٨٥٨م بأنهم «هؤلاء الذين يحبون الشعب اليهودى، وفوق كل ذلك، هم مسيحيون يحبون الملك اليهودى».**

إن ذلك فى الحقيقة لم يكن حبّا للشعب اليهودى ولكن قلقًا على الروح المسيحية، وكان ذلك هو الحافز الذى دفع كل هؤلاء الرجال الجادين الأخيار. لقد كانوا مهتمين فقط بإعطاء اليهود الهدية المسيحية التى لم يردْها اليهود، والتحرير المدنى الذى لم يردْه اليهود والذى كانوا يعارضونه باستمرار. وخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، تمت مناقشة مشروع «قانون التحرير» عدة مرات قبل تشريعه الفعلى سنة ١٨٥٨م، وهذا القانون يسمح لليهود بدخول البرلمان بدون النطق بالقسم المعتاد فى البرلمان، وهو «الإيمان الحق لدى المسيحى». وفى كل مرة تم فيها مناقشة مشروع القانون نجد اللورد «شافتسبرى» يعارضه بشدة على أساس أن التنازل عن ذلك القسم الرسمى يعتبر

خرقًا للمبادئ الدينية. ولم يكن الإيڤانجليكيون بذلك الحب لـ «شعب الله القديم» هم الذين أفسحوا المجال لليهود بأن يحصلوا على حقوق كاملة كمواطنين إنجليز، ولكن «الليبراليين - Liberals» الأقل ورعًا هم الذين حققوا ذلك. لقد كان اللورد «ماكاول» الذى يتحدث من الناحية التاريخية، وليس اللورد شافتسبرى من الناحية النبوئية، هو الذى ألقى ذلك الخطاب البليغ من أجل «التحرير»، والذى يذكر فيه أنه فى الوقت الذى كانت فيه بريطانيا «همجية مثل غينيا الجديدة.. كان لدى اليهود مدنهم البارزة وقصور من خشب الأرز ومعبدهم الرائع ومدارسهم التعليمية»، ولو أنهم قد أصبحوا فى ظروف أقل شأنًا الآن «أفلا يجب علينا الآن بدلاً من ذلك أن نعتبر المسألة عابرة ونندم على أنفسنا؟» يجب أن نعرف أن «شافتسبرى» قد قبلَ قانون «التحرير» حينما وجد تأييد المجلسين له، وطالب مسرعًا برفع السير «موسى مونتيفيور - Moses Montefiore» إلى مرتبة النبلاء. وقد كتب إلى «جلادستون» قائلاً: «إنه سيكون يومًا عظيمًا لمجلس الأعيان (اللوردات) حينما تندرج أسماء اليهود القدامى فى قوائم مشرعى المواريث فى انجلترا». ولم تلق وجهة النظر هذه ترحيبًا لدى اللوردات، ولكن شافتسبرى كان غير تقليدى كالعادة.

قد يمكننا تجاهل «جمعية اليهود» لو أنها ركزت كل اهتمامها فى تنصير اليهود. ولكن ذلك الرابط الحيوى، وهو استعادة إسرائيل، هو الذى أعطى لعمل الجمعية هذه الأهمية التاريخية. لقد بدأت الأمور

تتحـرك بعد سنة من تولى الملكة «ڤيكتـوريا» لعرش انجلترا، فى سنة ١٨٣٨م. وكان ذلك العام كما نذكر هو الذى وقعت فيه سوريا (ومعها فلسطين) فى فـوضى تحـدى مـحمـد على للسلـطان، والذى نتج عنه التدخل الأوروبى، لقـد كانت بريطانيا فى ذلك العام أول قـوة أوروبية تؤسس قنصليـة لها فى القدس، والذى تم تعـيينه كان نائبًـا للقنصل، ولكنها كانت بداية. وقد تصادف أنه فى مارس سنة ١٨٣٨م بدأ العداء التركى المصرى يحتـدم تجاه أزمة أخرى، حينما شجـعت الثورة العربية المحلية ضد إبراهيم باشا ولى العهد وابن محمد على، السلطان على أن يتسلح من أجل محاولة أخيرة يسحق بها محمد على المغرور. وقد قام «پالمرستـون» من أجل السلطان بإبرام معاهـدة تجارية مع الوالى، والتى تتضمن تزويد القنصلية البريطانية بالقدس بالمؤن. يمكن للمرء أن يجزم أن «آشلى - Ashely» كان الأساس فى كل شىء يتعلق بالقدس، وهو فى الحقيقة الذى رأى هذه الفكرة كخطوة أولى لاستعادة إسرائيل. لقد كان «پالمرستـون» هو الذى أرسل إلى القنصل يوجهه **«أنه سيكون جزءًا من واجـبك كنائب قنصل بريـطانى فى القـدس أن توفـر الحـمـاية لليـهـود بصـفـة عـامـة، وسـوف يكـون عليـك فى أقـرب فـرصـة الإبلاغ.. عن الوضع الحـالى للسكـان اليـهود فـى فلسطين»**. ولكن هذه لم تكن فكرة «پالمرستون» نفسه. إن وزير الخارجيـة كما كان آشلى يقول عنه آسفًا لم يكن يميـز النبى موسى من السـير «سـيدنى سمـيث!»، ولكنه يمكـن قبوله على أساس عملى وهو المصلحـة البريطانية. وفى هذه الحالة أكد

«آشلى» الفائدة من وجود العنصر البريطانى فى الساحة فى ذلك الوقت الحرج، ووضع أشلى فى رأس پالمرستون فكرة استخدام اليهود كوتد بريطانى فى الولاية العثمانية. لقد احتفظ آشلى بدافعه السامى وراء ذلك، ودون سرّا فى مذكراته أن «**الرب قد وضع فى قلبى رؤية هذه الخطة من أجله، وأعطانى القدرة على التأثير على پالمرستون**». ومن الغريب أن تأثير آشلى على پالمرستون الذى ينتمى للحزب المعارض له كان دائمًا أكبر من تأثيره على الوزراء المحافظين لدى حزبه. وليس الأمر غريبًا لأن آشلى كان زوج ابنة زوجة پالمرستون، إلا أنه غريب لأن كلا الرجلين المتناقضين كان مغرمًا ببعضهما البعض، رغم أن أحدهما كانت عيناه على الدنيا والآخر كانت عيناه على الآخرة. لقد كان پالمرستون يقدر نصيحة الشاب آشلى فى الأمور الدينية وكان كرئيس وزراء لا يعين من جانبه مطرانًا كما يقولون إلا بتوصية «آشلى». وكان «آشلى» من جانبه يعرف أن زعيمه الجرىء المفعم بالحيوية يمكن الاعتماد عليه فى هدفه الجرىء أو الأصلى، والذى سوف ينظر إليه رجال «پيل - Peel» اللامبالون أو رجال «أبيردين- Aberdeen» الحذرون، بحذر وتردد. إن حماس آشلى لتعيين القنصل قد دوّن كاملاً بالحروف الڤيكتورية المائلة، وكان مليئًا بعلامات التعجب. لقد استأذن هذا الصباح ليترك «يونج - Young» الذى تم تعيينه للتو كنائب قنصل جلالتها فى القدس. ياله من حدث عظيم! **إن المدينة القديمة لشعب الله على وشك أن تستعيد مكانًا لها بين الشعوب،**

والجلترا هى الأولى فى ممالك «الأغيار - Gentile» التى تتوقف عن أن تطأها.

قد يبدو أن المعانى التى استشفها آشلى من وراء تعيين نائب للقنصل فى القدس مبالغ فيها، ولكن آشلى لم يره مجرد ممثل لوزارة الخارجية ولكنه كان يراه مشعًا بأمل البشارة، و**«معتمدًا» إذا جاز لنا القول، لمملكة داود والقبائل الاثنتى عشرة.** فى الحقيقة لقد رتب آشلى ذلك الأمر بحيث يغطى نطاق سلطة القنصل البلد كلها فى إطار الحدود القديمة للأرض المقدسة، وأن القنصل الذى يتم اختياره يجب أن يكون شخصًا متعاطفًا مع القضية، لقد تولى يونج مهمته كقنصل بحماس. فى الحقيقة، لقد اتبع إرشاداته بحماس شديد جدًا لدرجة أن رئيسه، القنصل العام بالإسكندرية، كان يشكو لوزارة الخارجية أن السيد «يونج» «يمنح الحماية البريطانية بدون شرط أو تمييز لكل اليهود»، ولكن وزارة الخارجية أيدت يونج بوعد «بكل الدعم المطلوب» .

وفى ذلك الوقت كان آشلى يقرأ كتاب اللورد «ليندساى - Lindsay» الذى نُشر لتوه وهو «رسائل من مصر وسدوم والأرض المقدسة»، **وكان ذلك أول كتاب فى سيل كتب الرحلات إلى الأرض المقدسة، والتى أشبعت الشعب البريطانى بقرابة أربعين كتابًا سنويًا على مر الأربعين سنة التالية.** لقد استغل آشلى الفرصة لكى يعلن على الملأ رؤيته لاستعادة

«الأمة اليهودية» تحت رعـاية الكنيسة الأنجليكانية. إن التغـير السياسى الذى طرأ على فلسطين كـمنطقة نفـوذ بريطانية لم يكن قـد تبلور فى ذهنه بعد، ولكن البوادر الأولى لفكرة أن تصبح انتدابًا بريطانيًا ظهرت فى مقالة له عن كتـاب «ليندساى»، والتى كتبها لصحـيفة «كوارترلى ريڤيو - Quarterly Review» عدد ديسمبر ١٨٣٨م.

وسنأخذ كدليل، الخطاب الذى أُرسل له من شـخص يهودى تحول إلى النصرانية وصل مؤخرًا من «وارسو»، تحدث فيه عن تأجج المشاعر بين يهود روسيا وپولندا، وأن وقت العودة من أسرهم قد اقترب جدًا، وعن زيادة الاهتمام المسيحى بالأرض المقدسـة، عما أسماه بالاهتمام الجديد والرقيق بالعبـرانيين من ناحية المسيحيين، وأيضًـا تقرب اليهود من المسيحية.

وقد تحدث عن خطة الجـمعية لبناء كنيسـة أنجليكية فى القدس «إن أمكن على قمـة جبل صهيون نفـسه»، والتى يتم تحصيـل الأموال لها الآن. وكان المبشرون التابعون للجمعية يؤدون الصلوات بالعبرية، حيث لم تقدم أى خدمة پروتستانتية من قـبل، «وكانت طائفة صغيرة متدينة من اليهود المتنصرين حديثًا تستمع يوميًا للحقائق الأنجليكية من كنيستنا على جبل المدينة المقدسـة بلغة الأنبياء وروح الرسل»، وبالتأكـيد عبّر آشلى عن هذا الحـديث بأنه أهم حدث تم فى الحـاضر، وربما فى أى وقت منذ بدء الفساد فى كنيسة المسيح و«سـيؤسس تنصير اليهود تحت

الرعاية البـروتستانتية» المبـادئ الصافية للإصـلاح الدينى الذى تضمنه وترعاه كنيسة انجلترا للأبد.

وقد ترك الأمر الدينى جـانبًا، ثم بدأ يجذب الانتباه لأهمـية تعيين القنصل الجـديد، عـارضًا مـقتـرحًـا أن تربة وجو فلـسطين يناسبـان المحاصـيل الضرورية لبـريطانيا العظمى، من قطن وحـرير وصبـغات وزيت الزيتون، «ورأس المال والمهارات مطلوبان أيضًا»، ويرى أن يأتى ذلك من بريطـانيـا حـيث إن فلسطين الآن تتـمـتع بـوجـود القنصل البريطانى، وتأمين الممتلكات الذى يوفـره وجوده بالمنطقة. لماذا إذن لا يرى العالم عودة اليهود «الذين لن يقوموا بالزراعة فى أى أرض أخرى والذين وجدوا فى القنصل الإنجليزى وسيطًا بين شـعبهم وبين الباشا، والذين سيصبحون مرة أخرى رعاة أراضى يهوذا والجليل».

قد تندهش من ثقة آشلى فى قدرة نـائب قنصل وحيد على تحريك إمبـراطوريات، بوجوده فقط، ولكن الثـقة بالنفس الناتجة عن العـصر الڤيكتورى، مثل التى كانـت موجودة بالعصر الإليـزابيثى، هى التى أنشـأت الإمبراطوريـة البريطانيـة، وكان القنصل يمثل بريـطانيا. فـما المطلوب أكثر من ذلك؟

أمر وحيد، كان اليهود أنفسهم، أو المكون الأساسى الضرورى، لم يتواجد؛ لأنه حتى ذلك الوقت لم تحدث حركة عودة كبيرة، ليس قبل

جيل لاحق عندما قامت السياسة المعادية للسامية بالضغط الكافى لتدفع اليهود للنشاط الصهيونى، وهى سياسة القياصرة التى كانت سببًا لاستياء العامة. ولكن المعارك والمؤامرات والطموحات المتضاربة حول فلسطين، كانت سببًا لجعل شخص يهودى يأخذ على عاتقه مسئولية إعادة فتح الأرض لجنسه، وكان هذا رفيق آشلى السيد المحسن «موسى مونتيفيور- Moses Montefiore» والذى كان بسبب مشاعره الدينية وتحمسه الشديد مثل آشلى، وإن كان أقل، يؤمن باستعادة الأرض اليهودية كلها، وإن كان من الضرورى أن نشير لأسباب كثيرة أن «مونتيفيور» كان يهوديًا مؤمنًا لكن بطريقة أرثوذكسية، حيث كان يحضر يوميًا الصلاة اليهودية فى السابعة صباحًا، وكان يستعمل التقويم اليهودى ورفض حضور تقليده كمأمور؛ لأنه كان فى يوم «روش هاشانا - Rosh Hshanan» (أى : رأس السنة) لكن دخوله فى مجال التجارة عوّده على العمل لما يريد وألا ينتظر حدوثه، فلسطين يجب أن تكون لليهود، والقدس مقدرة أن تصبح عرشًا للإمبراطورية اليهودية وكونه رجلاً عمليًا جعله يقول أيضًا: «ابدأوا فى هذه اللحظة فى بناء المنازل فى القدس، ابدأوا فى الحال».

اعتبر مونتيفيور - مثل ذلك القنصل المتعلم - أن فكرة تنصير اليهود، والتى كانت الفكرة المحركة لدى آشلى، جنونًا، لكنهما بخلاف ذلك لم يكونا مختلفين كثيرًا. كلمة «القدس» المحفورة على خاتم آشلى ظهرت على مقعد عربة مونتيفيور بحروف عبرية ذهبية.

كـان الاثنان يؤمنان بأنه بمجـرد أن يشعـر اليهـود بتـربة فلسطين تحت أقدامـهم سيصبـحون مزارعين مرة أخـرى، وسيزرعون أشـجار التين ونبـات الكرمـة، وسيـنتشلون وطـنهم الأم من الضـياع، لقـد كـانا صهيـونيين قبل بدء الصهيـونية. أن تكون صهيونيّـا عام ١٨٣٠م كان شيئًا مثل أن تكون معاديًا للفـاشية فى عام ١٩٣٠م. آشلى كان محقًا للسبب الخطأ ومونتيفيور كان محقًا لكن قبل الأوان.

فى نوفمبر ١٨٣٨م ذهب مونتيفـيور إلى فلسطين، وبفضل نفوذه وثروته وذكرى كرمـه فى الزيارة السابقة، كانت رحلتـه فى البلاد مثل تقليد ملكى، وكانت وجهته إلى القدس وهو يمتطى جوادًا عربيًا أعطاه له الوالى التركى، الذى أخـذه أسفل جبل الزيتون وهو مـحاط باثنين من الجنود الأتراك فى زى الاحـتفـالات ، وقـام بين العروض والجـو الشرقى - كـعادة رجال الأعـمال - بفحـص المنازل والحالة الصحـية العـامة وفرص الـعمل واسـتصلاح الأرض المـتاحة لـقوم «شالـوكاه» البائسين، والذين عـاشوا على الصلاة والعبادة وقـراءة التلمود، وعلى قروش صندوق تبرعات القدس بالخارج (لفترة طويلة).

وواصل رحلته يشـاهد الناس بمصر مع «محـمد على» الذى طلب من «مونتيفـيور» مرة أن يكون وكيل أعماله، فقـام بوضع خطة للباشا لبيع الأرض وذكرها بالتفصيل فى مذكراته فى مايو ١٨٣٩م:

سأعطى «محمد على» ضمانًا «لمدة خمسين سنة، فى ١٠٠ أو ٢٠٠

قرية، سأعطيه إيجارًا متزايدًا بنسبة ١٠ إلى ٢٠٪، وسأدفع مجموع المال كله سنويًا فى الإسكندرية، وستكون الأراضى والبلاد خلال هذه الفترة معفاة من الضرائب سواء من الباشا أو الوالى للولايات المختلفة، بالملكية التى سآخذها. سأقوم بإرضاء السماء بعودتى لانجلترا وتأسيس شركة لزراعة الأراضى وتشجيع إخواننا اليهود فى أوروبا على العودة إلى فلسطين، أرجو أن أحقق عودة الآلاف من إخواننا لأرض إسرائيل، وأنا متأكد أنهم سيكونون سعداء بممارسة ديانتنا بطريقة مستحيلة فى أوروبا.

ووعده محمد على، وهو يدخن نرجيلته المرصعة بالجواهر، بأى قطعة من الأرض معروضة للبيع فى سوريا ووافق على فعل أى شىء يستطيع فعله، ليسانده فى مشروعه، لكن قبل أن تمر سنة ضعفت سلطة محمد على أيضًا، وعادت سوريا إلى السلطان، ولم تحن فرصة عودتهم مرة أخرى قبل أن تحبط سلالتهم البائسة، وفى نفس الوقت اندلعت حادثة دمشق، والتى شهدت العديد من حوادث القتل ضد اليهود بسبب مقتل الراهب «كاپوتشيان- Capuchian»، وتلت كل الأحداث الغاضبة للمذبحة أحداث الشغب بما فى ذلك السرقة والسجن والتعذيب لانتزاع الاعترافات التى دفع إليها ونظمها عملاء فرنسيون تحت النظام الكاثوليكى المحلى، كان هذا جزءًا من الغليان تجاه المسألة الشرقية، والتى بلغت ذروتها فى عام ١٨٣٩ - ١٨٤٠م فى مواجهة فرنسا. وبالرغم من أن حادثة دمشق كانت مهمة لتطور

القومية اليهودية فى القرن التاسع عشر وتوحيد يهود العالم، فمن المهم هنا أن نذكر أنها أعطت الدافع للتدخل البريطانى لصالح اليهود فى الإمبراطورية العثمانية وأيقظت الرأى العام لحالهم.

وقامت مذكرة وجهت إلى الملوك البروتستانت بأوروبا لعودة اليهود تم نشرها بالكامل فى جريدة «التايمز - Times» فى ٩ مارس عام ١٨٤٠م بجذب الانتباه للمسألة الشرقية، والعوامل المهمة الأخرى وقتها، معطية الوقت الملائم «لما هو الواجب الجيد» على المسيحيين البروتستانت تجاه اليهود. بعد ذلك بوقت قصير نشرت الجمعية العامة لكنيسة اسكتلندا تقريرًا عن طريق اثنين من مبشريها عن حالة يهود فلسطين، جذبت الكثير من الانتباه، وتبعتها بمذكرة موجهة إلى «بالمرستون»، التى نشرتها جريدة التايمز (عدد ٣ ديسمبر ١٨٤٠م) أوصته بتعيين قنصل للقدس ومد الحماية البريطانية لليهود، وعبّرت عن آملها فى أن الأزمة السورية الحالية «سينتج عنها زيادة، وترسيخ فى النفوذ البريطانى فى هذه الأرض المهمة».

وفى نفس الوقت ما كاد مونتيفيور يعود إلى انجلترا، حتى عاد مسرعًا إلى الشرق مرة أخرى ونجح فى إطلاق سراح المسجونين اليهود بالسجون السورية، ليس عن طريق العفو الذى كان يبغضه ولكن بالبراءة من تهمة القتل، وأيضًا تعويض، وأمر عام من السلطات بحماية ممتلكات وأرواح اليهود، وكان مونتيفيور رجلاً لا يمكن إيقافه

سواء عن طريق المؤمرات الفرنسية أو إجراءات محمد على، أو الحرب، لقد أذهل العالم ليس فقط بحصوله على البراءة الكاملة، ولكن على وثيقة أيضًا تضمن من السلطات المعاملة المساوية لليهود بالمواطنين العثمانيين، «وثيقة الحقوق» لليهود فى المناطق العثمانية، حصل عليها مونتيفيور بكل فخر وأمل، وقام بالمرور على باريس فى طريقه للوطن حتى يعطى بنفسه إلى «لويس فيليب» نسخة من الوثيقة التى حصل عليها لإحباط طموح الملوك فى الشرق. واللحظة التى حصل فيها على قمة الرضا النفسى، عندما كرمته الملكة ڤيكتوريا عند عودته على «جهوده التى لا تتوقف لصالح الإخوان المضطهدين فى الشرق، وبصفة عامة لصالح الأمة اليهودية».

وربما كان اهتمام الملكة له صفة شخصية(*)، «لكن تعليمات پالمرستون بخصوص اليهود لم تكن هكذا. وبينما كان «مونتيفيور» فى الشرق كان پالمرستون يرسل العديد من الرسائل إلى «پونسونبى» ومبعوثين آخرين، سلسلة رسائل توضح البداية الرسمية للتدخل البريطانى لصالح الشعب اليهودى واستقرارهم فى فلسطين، لقد عقد بالفعل فى يوليه «معاهدة لندن»، حيث قام باستعطاف القوى الأربع

(*) عندما كانت الملكة أميرة، قامت هى ووالدتها بتناول الغداء فى منزل «مونتيفيور» الريفى فى «كنت»، حيث كان جارها فى عام ارتقائها للحكم، حيث قامت بتنصيبه فارسًا، وهو أول يهودى متنصر يحصل على هذا اللقب، وقبل رحيله لدمشق قابلته الملكة شخصيًا لتشجيعه فى أداء مهمته.

لمساعدة السلطان ضد محمد على، والتى تسببت فى غضب فرنسا والتعجيل بالمرحلة الأخيرة من المسألة الشرقية.

بينما كان پالمرستون يقهقه بسبب ضربته الشجاعة، وكان مونتيفيور يتقدم للإمام مثل فارس من العصور الوسطى لينقذ إخوانه المجروحين، كان آشلى الذى ما زال مستغرقًا فى رؤيته النبوئية، يستخدم هذه الحادثة أيضًا.

كتب مذكراته فى ٢٤ يوليه عن تحمسه لآمال وطموحات الشعب اليهودى «كل شىء يبدو مناسبًا لعودتهم لفلسطين، هل من الممكن لقوى الغرب الخمس أن تتدخل لتضمن أمن أرواح وممتلكات اليهود؟ سوف يعودون بسرعة بأعداد كبيرة، ثم بمباركة الرب سأقوم بإعداد وثيقة وسأؤيدها بكل الأدلة التى يمكننى الحصول عليها، وبثقتى بحكمة ورحمة الرب، سأقدمها لوزير الدولة للشئون الخارجية.

فى الأول من أغسطس تناولت الغداء مع پالمرستون وقدمت له خطتى التى بهرته تمامًا، وقام بطرح بعض الأسئلة ووعد بالتفكير بالأمر».

اعترف آشلى أنه استخدم براهين سياسية واقتصادية وتجارية؛ حيث إن هذه الاعتبارات التى سيأخذ بها وزير الخارجية فى اعتبار الوطن الذى «**لا يبكى مثل سيده من أجل القدس**»، وهو لا يدرى أنه «تم اختياره بواسطة الرب كأداة لصالح شعبه القديم، وللحصول على حقوقهم بدون إيمانه بقدرهم».

يأتى «بالمرستون» ببراعة ويكتب رسالة إلى «بونسونبى» السفير لدى الحكومة العثمانية والتى تم ذكرها آنفًا فى هذا الفصل، يتحدث فيها عن مزايا توطين اليهود فى فلسطين للسلطان ولبريطانيا. وفى نفس اليوم وصل الأسطول البريطانى لساحل سوريا، وظهر مقال آشلى فى جريدة «تايمز» فى السابع عشر، وتبعته العديد من الردود التى آثارها المقال، واقترح أحد الذين قاموا بالرد - وهو شخص مجهول - أن على بريطانيا أن تشترى فلسطين لليهود، واقترح آخر أن عودتهم مسألة سياسية عملية بالنظرية المتفائلة التى تقول: **إن استحواذ اليهود على سوريا مرة أخرى سيكون بمثابة إزالة عقبة من بين القوى، وبالتالى ستساعد على نشر السلام العام.**

قدم آشلى رسميًا إلى «بالمرستون» فى ٢٥ سبتمبر وثيقته عن «عودة اليهود إلى أرضهم القديمة». لقد كان إيقاع الوثيقة مملاً؛ لأن آشلى كان يحاول أن يضع سببًا للسياسة الرسمية، جرد قلمه من بهجة الحديث عن «شعب الله القديم» وعودة مملكة المسيح، ولم يستطع - حيث إنه كان معاديًا للإمبريالية - أن يتحمس فى الوثيقة لأسباب تدعو لرفع العلم البريطانى على تلك البلاد. قدم ببساطة خطة «لضبط المسألة السورية» ومروجًا لخصوبة الأراضى بين الفرات والبحر الأبيض المتوسط، ويؤكد أن اليهود يعتقدون أن الوقت قد اقترب لعودتهم لأرض فلسطين، وأن خوفهم فقط على أرواحهم وممتلكاتهم يقف دون ذلك، ويقترح أن السلطة الحاكمة للمقاطعات السورية (التى لم تكن محددة فى الوقت الذى كتب فيه هذا) عليها أن تدخل فى ارتباط

مقدس لتؤسس مبادئ وممارسات الحضارة الأوروبية، وأن هذه السلطة يجب أن تحث على سن «قوانين منصفة وحماية منصفة لليهود وغير اليهود»، وأن على القوى الأربع أن تضمن تطبيقها، وأنه يجب أن يتم إلحاق بند خاص بإقرار ضمانهم بالمعاهدة النهائية للمسألة الشرقية. ويسرى هذا الضمان على «أموال وصناعات اليهود الخفية»؛ حيث إن الأراضى الآن لا قيمة لها كمصدر للدخل، فسيتم تطويرها ودفع ما عليها من ديون، ويتوقع المزيد من الجهد من اليهود أكثر من غيرهم بسبب «ذكرياتهم القديمة وحبهم الشديد لأرضهم»، صناعتهم ومثابرتهم ضخمة، يستطيعون العيش بأقل المصاريف الممكنة، وهم معتادون على المعاناة ومتدربون على الطاعة التامة للحكم الاستبدادى، وسيخضعون للحكومة المشكّلة حاليًا».

ومثله مثل الذين قاموا بـ «وعد بلفور»، لم يذكر آشلى أى شىء عن إمكانية إقامة دولة يهودية، كان الحذف فى وعد بلفور عمديًا، وكما تم إثباته، فإن هذا كان الخطأ القاتل الذى سبب كل المتاعب، لكن أن يكون آشلى قد فكر بإقامة دولة ذاتية الحكم أمرًا مشكوكًا فيه. بالعكس، لقد أكد لـ «بالمرستون» أن اليهود سيعترفون بالملاك الحاليين للأراضى (الملاك الأصليين العرب)، وسيرقبون أن يبدوا اهتمامهم بها عن طريق الإيجار أو البيع، وأضاف: «سيعودون على نفقاتهم الخاصة وبدون أى مخاطر غير على أنفسهم، وهذه ستكون، أرخص وأفضل وسيلة» لاستعمار سوريا، لن يطالبوا الضامنين «بأى نفقات مالية»، وأن الفوائد التى ستنتج عن تلك العودة، ستعم العالم المتحضر».

ولم يكن هذا آشلى فى أفضل حالاته، ففى محاولته أن يكون خبيرًا بالحياة نجح فقط فى أن يبدو جشعًا، فكان تقديره لليهود مضحكًا، على الأقل نحن نعرف أنه سيكون هكذا فى التاريخ المقبل، لكن يجب أن تتذكر أن آشلى كان يكتب هذا فى الوقت الذى كان اليهود أنفسهم لم يفكروا بعد فى فكرة الدولة (لم يكن هذا إلا بعد ٥٥ سنة) قبل أن تبرز «دولة هيرتزل اليهودية- Herzl's Judenstaat» بين شعبه، ولقد شهقوا من صدقها.

كان آشلى يكتب قبل أن يولد «هيرتزل» بعشرين سنة، وقبل أن تشكل أول منظمة يهودية لإرسال المستعمرين لفلسطين بأربعين سنة. وأيضًا الفكرة الغربية الخاصة بخضوع اليهود لم تكن نتاج وقته فقط لكن أيضًا نتاج فكره، الذى اعتُبر بطريقة ما عاملاً سلبيًا للألفية المسيحية. ولو كان آشلى يفكر بطريقة سياسية أكثر لتذكر المكابيين، وكيف اتخذهم أبوت ألفريك مثلاً لإلهام الشعب الإنجليزى فى القومية.

فى هذه الأثناء كانت الأحداث تصل لذروتها وبسرعة فى سوريا.

فى الثالث من أكتوبر، تم قصف بيروت بالقنابل من قبل أسطول «نابير» واستسلمت، وبعد ذلك بشهر سقطت عكا وألهم آشلى ليرى إعجاز الرب فى البحار الإنجليزى، كما رأى من قبل الرب وهو يهدى ويساعد وزير الخارجية، «إنه شىء يفرح القلب بالفعل أن نقرأ عن

نجاحنا فى سـوريا، والبسالة المنقطعـة النظير والإخلاص التـام لرجال الوطن. فأبسط ضابط بـحرى واحد يفعل أكثـر من مائة ضابط تركى .. يا له من سـبب للعظمـة!.. **ويالهـا من أداة لإرضـاء الرب لاتحـادنا وحمـايتنا لشعـبه القديم ولهـدفه الأخـير على الأرض!**» .. ففى مذكراته يعود آشلى لنفسه.

وفى الشهـور التى تليها التى طارد خـلالها «ناپير» أسطول محـمد على حتى عاد لمصر وأجبره على إعادة الأسطول للسلطان، بلغ التأثير البريطانى على الحكم التـركى ذروته. صار پالمرستـون الآن ينفذ خطة آشلى لكن بأسلوبه، فذكّر پونسونبى فى نوفمبر بدور بريطانيا كحامية لليهود تحت الحكم التركى، وفى فبـراير ١٨٤١م أذن للسفير أن يسمح لليهود «أن يرسلوا لـلحكومة التركية عن طريق السلـطات البريطانية، عن أى شكاوى لديهم ضد السلطات التركية».

وفى نفس الرسالة قـام مرة أخرى بمناقـشة مشروع آشلى، وتقـريبًا باستخـدام كلمات آشلى، حيث كتب وزير الخارجـية «إنه سيكون فى مصلحة السلطان أن يحث اليهـود المنتشرين فى الدول الأخرى بأوروپا وأفريقيا على الذهاب والاستـقرار فى فلسطين؛ لأن الثروات والعادات المنظمة والصناعات التـى سيجلبونها معـهم ستساعد كـثيرًا على زيادة مصادر الإمبراطورية التركية ولكى تقوم بنشر الحضارة هناك».

ويجب الضغط على السلطان لكى يعطى «أمن حقيقى وملموس».

وفى أبريل تبع هذا بخطاب غير مباشر لكل القناصلة البريطانيين المقيمين فى الإمبراطورية التركية، يخبرهم فيه أن الحكومة التركية تضمن معاملة منصفة للمواطنين اليهود، ووافقت أن تحاسب عن أى معاملة قاسية تعرف بها عن طريق المسئولين البريطانيين. وقام بإخطار كل ممثلى الدول أن يقيموا «تحقيق دقيق» لأى حالة من هذه الحالات التى قد يعرفون بها، ويقدموا «تقريراً» كاملاً للسفير فى استانبول، ويوضحوا للسلطات التركية المحلية أن «الحكومة البريطانية تريد مصلحة اليهود العامة»(*).

وكان الذى نتج عن خيال آشلى والحقائق الإيڤانجليكية قد تحول إلى سياسة رسمية، لكن آشلى قام بدعك مصباحه مبكراً بالنسبة للتاريخ وكان حلمه قصير العمر، عاش لفترة قصيرة على الأرض ثم عاد إلى الزجاجة مرة أخرى، ولم يتم إلحاق الضمان الذى كان يريده فى المعاهدة النهائية للقوى الخمس، لصعوبة إخراج اتفاقية بين خمس قوى ذات مصالح مختلفة، المعاهدة التى ستعرف باسم «اتفاقية المضايق» والتى كانت قاصرة فقط على التحكم فى خليج «البوسفور»

(*) نذكر القارئ أنه فى آخر القرن الخامس عشر، لجأ اليهود الفارون من إسبانيا لتركيا، مقر الخلافة الإسلامية لما عرف عنها من عدل وتسامح مع المسيحيين واليهود، أما الادعاء بغير ذلك، فهو كثيراً ما يكون ممالئاً للادعاء بأن مصر تضطهد المسيحيين. وما أشبه سياسة بريطانيا فى ذلك بسياسة الولايات المتحدة اليوم عندما تتدخل فى شئون الدول الأخرى تحت أعذار مختلفة، متعددة ومتجددة.

و«الدردنيل»، ولم يتعد التشجيع على عودة اليهود لفلسطين رسالة بالمرستون الأخيرة فى هذا الموضوع فى فبراير، ولم يلق «بونسونبى» بالاً للفكرة ولم يبذل أى مجهود لينفذها، والسلطان أيضًا لم يكن يحب الفكرة، والكارثة الكبرى حدثت عندما قاوم «بالمرستون» الأنيق هدير تهديد الحرب الفرنسية، وأتم معاهدة القوى الخمس فى يوليه، وتم نزعه من منصبه عند هزيمة حكومته لموضوع محلى فى أغسطس، وتغيرت السياسة عند مكتب وزارة الخارجية بواسطة الحماقة القديمة للورد أبيردين - كما قال بالمرستون. **قابل أبيردين اهتمام سلفه باليهود بنفور ولا مبالاة، مثلما فعل «آسكويث - Asquith» بعد ذلك بخمسة وسبعين عامًا عندما ارتعد للخطة الرائعة لفلسطين التى قدمت لمجلس الوزراء بواسطة «لويد جورج»، فقام بإخطار يونج القنصل بالقدس أن يحد من الحماية القنصلية إلى «الرعايا والوكلاء البريطانيين فقط».**

وصل «بالمرستون» بالطبع إلى ممارسة تقليدية عندما أذن بالحماية لليهود غير البريطانيين الجنسية، ولكن فعلها عمدًا، عندما شجع اليهود غير المعترف بهم كمواطنين فى الإمبراطورية التركية، والذين تتجاهلهم السلطات التركية والمرفوضين كرعايا عن طريق القناصلة الأوروبيين الآخرين، باللجوء إلى بريطانيا طلبًا للحماية، والتى لن يحصلوا عليها من مكان آخر، كان يمهد الطريق لبريطانيا لتصبح حامى الاستيطان اليهودى المستقبلى فى فلسطين.

على كل، لم يعتبر أبيردين أن وظيفة وزارة الخارجية المناسبة أن تطرح أفكارًا، بالذات الأفكار الجديدة، ولا يرى أى سبب للتحرك بعيدًا عن القانون(*)، ولكن تهيبه لم يؤثر على الرجال الآخرين بالوزارة، فقد واظب كل من يونج وخليفته بالقنصلية فى القدس «چيمس فين» صهر «الرباى» ماكاول وحوارى آشلى فى التدخل لصالح شعب الله القديم عند حدوث أى مشكلة، سواء كانوا مواطنين بريطانيين أم لا.

وبالفعل فإن إمكانية إحياء إسرائيل من وجهة نظر آشلى كانت تبدو فى قمة ازدهارها، بالرغم من تغير الحكومة؛ لأنه على الأقل نجح فى اغتنام أغلى أمنياته وهى بناء أبرشية أنجليكية فى القدس بواسطة الكنيسة الإنجليزية، بيهودى تحول للمسيحية ليصبح أول أسقف لها وكان هذا تتويجًا لإنجاز الجمعية اليهودية، علامة إحياء مملكة إسرائيل القديمة بأبرشية للكنيسة الإنجليزية، وكان كل هذا إنجازًا لكل طموحات آشلى؛ لأنه آمن بحماس شديد بـ «نبوءة إشعيا».

كانت الأبرشية تتوق لرعاية الملك البروتستانتى «فريدريك وليام - Fredrick William» ملك «بروسيا»(**) وممثل دولته «شيفالير بنسن - Chevalier Bensen» الذى عين لانجلترا لسبب خاص وهو مساندة -

(*) هذا تعبير محورٌ عن المعنى الأصلى، وهو «ضد القانون».

(**) جزء من ألمانيا.

آشلى فى مشروعه، كان أكثر جهد مشترك لهما أن يتغلبا على المعارضة التى تنشأ من القضايا العقائدية التى واصلت تأجيج العصر الفيكتورى. وعبّرَ حزب الأنجلو-كاثوليكى لحركة أكسفورد، التى كانت تحاول التوفيق بين الكنيسة الإنجليزية وكنيسة روما، عن استيائهم بأن تلك الأبرشية ستكون خطوة منحازة للبروتستانتية الصغرى، وكان «جلادستون» الذى كان صوتًا كبيرًا وقويًا فى الكنيسة الكبرى «منزعجًا ومحتارًا» وأفرغ ذلك فى الخطاب الذى أرسله إلى «بنسن» ويبلغ ٢٤ صفحة، يؤكد فيه أن غموض الخطة والجديد الذى تجلبه، قد أثرا تأثيرًا شديدًا على أعصاب مواطنيه.

أسرع بنسن وحاول استيضاح الحيرة فى مناقشة ظلت لمدة ساعتين. وسأل جلادستون: «ألن تفعل شيئًا لتنتفعوا من الأوضاع السياسية فى تصادفها مع أعراض إحياء الصهيونية؟».

بعد ذلك رتب آشلى لقاءً بين بنسن وپيل، الذى سيصبح رئيس الوزراء الجديد، ويهمس فى مذكراته بأمنيته أن يكون لدى پيل قلب مثل قلب «سليمان» كبير مثل رمال البحر؛ لأن هناك الآن قضايا ضخمة كافية لتملأه فرصة «**زرع - تحت راية الصليب - شعب الله على جبال القدس**».

ولم يعترض پيل، وبعدها بأسبوع فى (١٩ يوليه) جاء الدور على بنسن ليقول بعد مقابلة مع پالمرستون الذى لا يزال بالوزارة: «إنه يوم

عظيم . . تم الاعتراف بالمبدأ، لذا بدأت البداية لإحياء إسرائيل وإرضاء الرب».

جاءت الآن أعظم لحظات آشلى لاختيار الأسقف؛ حيث إن بالمرستون سيوافق على أى شخص يقوم بتعيينه، واقترح ملك بروسيا «ماكاول» لكنه رفض بسبب أنه كان يريد أن يتولى المنصب شخص من أصل عبرى، وآشلى كان يوافقه الرأى، وتم وقوع اختياره على المبجل الطبيب «أليكساندر» وهو إسرائيلى ينتمى للكنيسة الإنجليزية وأستاذ للعبرية والعربية بـ «كلية كنجز - King's College».

وتمت الموافقة على الاختيار، ثم ظهر عائق عندما كتب «بالمرستون» من استانبول أن السلطان رفض بناء كنيسة فى القدس، لكن بالمرستون أصر، وقال لـ «آشلى»: «لقد كتبت للورد پونسونبى لحثه على بذل قصارى جهده فى الأمر وأوصيه أن يقوم بالتأثير المطلوب على كل من السلطان والسفير».

وفى ٢٣ سبتمبر أصدر البرلمان قانون إنشاء أبرشية القدس، وتسلم آشلى خطابًا يخبره عن «الجيشان الكبير الذى أثارته القضية اليهودية فى «ليفربول»، وتم إلقاء ٢٤ موعظة فى أحد أيام الآحاد فى صالحنا» جاعلين اليهود بالفعل الموضوع المفضل للمجتمع الإنجليزى، لكن الحماس لم يكن عامًا، كان هناك مَن عارض الموضوع من الناحية العقائدية، بعض الأشخاص الذين احتفظوا باحتقارهم لأى حماس

لكل الديانات واعتبروا المسألة كلها حماسًا موجهًا بطريقة خاطئة. «**كل الشباب جن جنونهم بالدين**»، هكذا تذمر اللورد «ميلبورن» رئيس الحكومة.

لكن وزارة المحافظين الجديدة التى يرأسها پيل اكتسحها مد الحماس إن لم يكن الابتزاز لتقبل آشلى، الذى قام بتحذير أبيردين بمشاعر البلد الجياشة وبعواقب إعاقة الأمر، وهو بنفسه كان يؤمن أن «حب شعب الله» المتجسد فى الأبرشية هو أكثر مبادئ المحافظين أهمية، وسوف ينقذ البلاد، وفيما يبدو أن هذه كانت وصفته للأزمة الحالية التى أحدثتها مجاعة القمح التى كانت تجتاح البلاد.

وعلى أى حال كانت مجهوداته فى هذا الوقت ناجحة. وأكد له پيل أنه لن يقوم بوضع أى عوائق، وحتى أبيردين ارتاح، واعترف بنسن أنه قام بالبكاء من منظر صديقه العزيز «آشلى» النبيل لهذا العالم، الذى حقق أشياء جيدة كثيرة.

كل شىء الآن جاهز للتكريس، توالت الخطابات بين ملك بروسيا وآشلى وبنسن. لم يقم الملك منذ أيام داڤيد بلفظ مثل تلك الكلمات. قال آشلى هذا بتعجب عندما استلم رسالة تشجيع من «فريدريك ويليام»، حتى إن الكثيرين من رجال الكنيسة الكبرى انضموا لهم بما فيهم الكاردينال مانينج وأخيرًا جلادستون الذى على حد قول آشلى «تجرد من زى حزب المعارضة العقائدية وتكلم مثل رجل تقى واقترح

نخبًا للأسقف الجديد»، طبقًا لـ «بنسن» قام بإلقاء خطبة بليغة، كانت مثل شعاع لطيف نصف شفاف، وهو وصف ملائم لخطبة جلادستون.

جلس رئيس أساقفة «كانتربرى» الذى سيقوم بإقامة المراسم مع آشلى بالمكتبة لمدة ساعتين يتحدثان عن اليهود. «الرجل العجوز المخلص مفعم بالحماس والإيمان للقضية»، وأكد أن «القضية متأصلة فى قلب انجلترا»، ستقام الخدمات المقدسة فى ١٢ نوفمبر. تغلب الطموح على الجميع، بالنسبة لـ «آشلى» كانت هذه ذروة كل ما قام به من عمل، ويجدها «أمر مثير أن يرى العبرانيين يعينون عن طريق الكنيسة الإنجليزية ليحملوا إلى المدينة المقدسة الحقائق والبركات التى حصل عليها غير اليهود منها»، ربما سيحاول المعارضون «أن يخفوا حقيقة أنهم لا يقبلون أن أمة اليهود ترتقى لتتولى مهام الأساقفة، فليكن، يمكننى أن أحتفل على قمة جبل صهيون كعاصمة، وبكنيسة فى القدس، ووجود ملك عبرانى».

سيقوم الأسقف أليكساندر بالوعظ لأول مرة فى ١٨ نوفمبر فى «الكنيسة اليهودية» كما أطلق عليها آشلى، وفى التاسع والعشرين سيبدأ فى القدس. وفى اللحظة الأخيرة حدثت مفاجأة عندما رفض پيل أن يأخذ فى قارب تابع للحكومة الأسقف إلى سوريا، التى اعتقد آشلى أن مستواه يتطلب ذلك، وتحدث پيل عن غضب الحكومة التركية وأراد أن تتم الأمور فى هدوء.

وقال فى غضب: «لا أفهم لماذا يجب علينا أن نعطيه قاربًا؟»، فكتب الرد عليه: «سأقول لك لماذا: ملك أجنبى (ملك بروسيا) ساهم بنصف تكاليف أبرشية إنجليزية، والشعب البريطانى ساهم بالنصف الآخر، وهذا يظهر الاهتمام الشديد والجارف، وكل ما نريده من حكومتنا هو أن تقرضنا قاربًا ليأخذ الأسقف».

قال پيل: إنه سيتحدث إلى أبيردين، وهكذا انتهت محادثة قصيرة وأيضًا غير مريحة وكريهة، ولكن لمفاجأته، تغلب آشلى عليه، فبعد ثلاثة أيام قام پيل بإصدار الأوامر اللازمة للإمپريالية البحرية ليمكنوا الأسقف من السفر بواسطة قارب من الحكومة.

ثم جاءت أخبار أن الحكومة التركية ألغت تصريحها بإقامة كنيسة، لكن پونسونبى لمرة واحدة أثبت شجاعة، وأرسل رسالة «تهديد» شجاعة إلى السلطان، وحتى أبيردين احتقر هذه الإهانة، على كل حال، بعد ذلك عاد إلى تهيبه المعهود وأمر يونج فى القدس أن «يمتنع بحرص» عن تعريف نفسه كخادم للملك، بأى طريقة مع مهمة الأسقف، أو التدخل بأى شكل بين المواطنين اليهود والحكومة التركية.

لكن لم يلق أى شخص بالاً لـ «أبيردين»، وبالنسبة لـ «آشلى» كان قد تم الوصول للهدف الأسمى، لتعزيز الحقيقة البروتستانتية ورفاهية إسرائيل، وإعداد مملكة الرب المباركة.

وماذا بعد ذلك؟ ماذا عن الآمال العظيمة لتتحقق؟، الحقائق

العظيمة لتنشر الضوء العظيم الذى أشرق على العالم من أبرشية أنجليكية فى المدينة المقدسة يدعو شعب الله القديم للوطن؟ الحقيقة المؤلمة هى أن أحداً لم يرَ هذا، البابوية لم تذبل، البروتستانتية لم تتقدم، واليهودية لم تتغير، والحادث غير العادى - والذى تم نسيانه - والذى أضاف درجات كثيرة من الحرارة على الجدل الدينى فى العصر الفيكتورى لخصه فى تقرير كتبه مسافر إنجليزى هو «إ. واربرتون» صاحب كتاب «الهلال والصليب» حيث قام بزيارة كنيسة الأسقف أليكساندر فى عام ١٨٤٤م فى القدس، ووجد مجموعة مصلين مكونة من ثمانية يهود تحولوا للمسيحية، وسائحًا أو اثنين، «جبل صهيون ليس المكان المناسب لكى يضحى اليهود بديانة آبائهم»، أخبر شخص عبرانى واربرتون بهذا، ويبدو أنه لم يفكر أى شخص فى انجلترا بهذا.

نعى آشلى فقط موت القس أليكساندر سنة ١٩٤٥م والذى جاء فى توقيت غير مناسب، وكان آشلى هو الوحيد الذى سمح لهذا الشك أن يخترق عقله، لقد كان يتساءل قائلاً: «هل نحن قمنا بتصور مشروع فحسب ثم بعد ذلك تخيلنا أنه أحد أوامر الرب؟».

***